شعر الأخلاق
عند أسامة بن منقذ
دراسة تحليلية

إعداد:

د. محمد بن هادي المباركي

الأستاذ المشارك بقسم الأدب والبلاغة بكلية اللغة العربيَّة

الجامعة الإسلاميَّة بالمدينة المنوَّرة

المقدمة

الحمد للّه رب العالمين، والصَّلاة والسَّلام على المبعوث رحمةً للعالمين سيِّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد: فإنّ الأخلاق الفاضلة هي قوام أيّ أمّة من الأمم، وأساس قوّتها وتماسكها، وسرّ ازدهارها في الحياة.

والأخلاق في الإسلام تعني مجموعة المبادئ والقواعد المنظِّمة للسُّلوك الإنساني التي يحدّدها الوحي على نحو يحقِّق الغاية من نزوله(١).

وممَّا يؤكِّد اهمِّيَّة الأخلاق في الإسلام، وكونها الدَّعامة الأساسيَّة للمنهج الإسلامي ما ورد في قول النَّبيّ الكريم –صلى الله عليه وسلَّم-: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ"(٢) وقوله –صلى الله عليه وسلّم-: "الدِّينُ حُسْنُ الْخُلُق"(٣).

ولذا فالعلاقة بين الإيمان والخُلُق وثيقة، وقد أشار النَّبيّ –صلى الله عليه وسلّم- إلى ذلك في قوله: "أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَاناً أَحْسَنُهُمْ أَخْلاَقاً"(٤).

ولا شكَّ أنّ للأخلاق آثاراً عظيمة في حياة الأفراد والمجتمعات، حيث ينبع ارتقاء الأمم من ارتقائها في سُلَّم الأخلاق الفاضلة، فهناك تناسب

(١) انظر: الأخلاق في الإسلام د. عبد اللطيف محمد العبد ص ١٢، الاتجاه الأخلاقي في الإسلام د. مقداد يا لجن ص ٤٧.
(٢) مسند الإمام أحمد ٢/٣٨١.
(٣) الأدب المفرد ص ٣٨١.
(٤) مسند الإمام أحمد ٢/٢٥٠.

طردي في هذا الجانب صعوداً وهبوطاً[1].

وقد استهواني القيام بدراسة تحليليّة في هذا الاتِّجاه في شعر أحد شعراء القرن السّادس الهجري، الذي لمسست في أشعاره التَّركيز على جانب الأخلاق الفاضلة والقيم النَّبيلة، ذلكم الشَّاعر هو أُسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ).

وأودّ أن أشير إلى أنّ المنهج الذي سرت عليه في بحثي هذا كان منهجاً وصفيّاً تحليليّاً، عالجت من خلاله النُّصوص الشِّعرية، ودرست ما فيها من قيم في المضمون وفي الأداء الفنّي.

وقد تكوَّنت خطّة البحث من ثلاثة مباحث تسبقها مقدِّمة وتتلوها الخاتمة.

أمّا المبحث الأول فقد تطرّقت إلى التعريف بالشَّاعر، فجاء بعنوان: ((أُسامة بن منقذ –حياته وآثاره)).

وقد تضمَّن المبحث الثَّاني الحديث عن موضوعات شعر الأخلاق عند أُسامة بن منقذ.

أمَّا المبحث الثَّالث فقد اختصّ بدراسة أهمِّ الخصائص الفنِّيَّة في شعر الأخلاق.

وأخيرا جاءت الخاتمة، وتضمَّنت خلاصةً للبحث.

أمّا الفهرسان فكان أحدهما للمصادر والمراجع، والآخر للموضوعات.

وأسأل الله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وصلى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصَحْبه وسلّم تسليماً كثيراً

❁❁❁❁

(١) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها د. عبد الرحمن حبنَّكة الميداني ص ٣٠.

المبحث الأول

أسامة بن منقذ حياته وآثاره:

هو أسامة بن مرشد بن علي بن مُقلَّد بن نصر بن منقذ، الأمير الشاعر، مؤيَّد الدَّولة، أبو المظفَّر، الذي ولد في يوم الأحد السَّابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٨٨هـ[١]، في أسرة توارثت إمارة ((شَيْزَر)) وهي مدينة تقع إلى القرب من حماة، تبعد عنها قرابة خمسة عشر ميلاً، ولم يزل ذكرها قائما إلى اليوم، حيث تعرف باسم ((سيجر)) تصحيف ((شيزر)) كما ذكر ذلك ((فيليب حتي)) في مقدِّمة كتاب ((الاعتبار)) [٢].

وكان والد أسامة قد تزهَّد وتخلَّى عن الإمارة لأخيه أبي العساكر سلطان –الذي كان أصغر منه– وقال: "والله لا ولِّيتُها، ولأخرجنَّ من الدُّنيا كما دخلتها"[٣]، وعكف في ليله على نسخ القرآن وتلاوته، وفي نهاره على الصَّيد الذي كان شغوفاً به[٤].

(١) وفيات الأعيان لابن خلِّكان ٦٣/١، والروضتين في أخبار الدَّولتين لأبي شامة المقدسي ١١١/١-١١٢، وسير أعلام النُّبلاء للذَّهبي ٢٨٩/١٣.
(٢) الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ٣.
(٣) الروضتين في أخبار الدَّولتين لأبي شامة المقدسي ١١١/١-١١٢.
(٤) الاعتبار ص ١٤٣.

ونشأ أسامة في كنف أبويه وعمِّه وجدِّته، وفي وسط أسرة من أعرق الأسر العربية، أكثر رجالها فرسان محاربون من الطَّبقة الأولى، وبعد ولادته بنحو سنتين بدأت الحروب الصَّليبيَّة في بلاد الشام سنة ٤٩٠هـ[١]، وربَّاه أبوه على الشَّجاعة والفتوَّة والرُّجولة، ومرَّنه على الفروسيَّة والقتال، وكان يخرجه معه إلى الصَّيد، ويدفع به بين لهوات الأسود، فأخرج منه فارساً كبيرا، وسياسيّاً ماهراً، ورجلاً ثابتاً، لا تزعزعه الأعاصير، ولا تهوله النكبات والرَّزايا[٢]. فهو يلخِّص تجربته القويَّة وما لاقاه فيها من الأهوال والمشاق، مبيِّناً أن الآجال بيد الله تعالى، فلا يقدِّمها إقدام، ولا يؤخرها إحجام، حيث يقول في كتابه الذي أسماه ((الاعتبار)): "فلا يظنُّ ظانٌّ أن الموت يقدِّمه ركوبُ الخطر، ولا يؤخِّره شدّة الحذر، ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيتُ من الأهوال، وتقحَّمتُ المخاوف والأخطار، ولقيت الفرسان، وقتلتُ الأسود، وضُرِبْتُ بالسُّيوف، وطُعِنتُ بالرِّماح، وجرحت بالسِّهام والجُرُوخ[٣]، –وأنا من الأجل في حصن حصين– إلى أن بلغت تمام التِّسعين"[٤].

(١) انظر: الأدب في بلاد الشام من العصر الإسلامي وحتى نهاية العصر العباسي، د. عمر موسى باشا، ص ٤٥٦.
(٢) انظر: الاعتبار ص ٣٥.
(٣) الجروخ: بضمّ الجيم وهي: من أدوات الحرب تُرمى عنها السِّهام والحجارة، واللفظة معرَّبة عن التُّركيَّة.
(٤) الاعتبار ص ١٦٣.

ولم يكتف أبوه بتربيته الحربيّة، بل عمل على تعليمه مختلف العلوم الشرعية واللغوية، فسمع الحديث من أبي الحسن علي بن سالم السِّنبسي[(١)]، وقرأ النحو على أستاذه أبي عبد الله الطُّلَيطلي قريباً من عشر سنين في شيزر، وكان قد دعاه أسامة بسيبويه زمانه[(٢)].

وكان الأُمراء بنو منقذ ممَّن يقصدهم الأدباء والشُّعراء، يمدحونهم ويسترفدونهم، وكانوا هم أيضا علماء وشعراء، فاقتبس أُسامة من هذا المجتمع الأدبي الذي نشأ فيه أدباً جمّاً، وعلماً واسعاً، وحفظ كثيراً من الشعر القديم، فقد قال السَّمعاني: "قال لي أبو المظفَّر –يعني أسامة–: أحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية"[(٣)]. وصار شاعراً فحلاً من كبار شعراء زمانه.

هكذا رُبِّي أسامة هذه التَّربية الخاصَّة، إذ كان في أنظار قومه أميرهم المرتقب الذي سيتولّى عرش ((شيزر)) بعد عمِّه أبي العساكر سلطان، وكان أسامة أثيراً لدى عمِّه سلطان الذي لم يرزق بأبناء بعد، فاتخذه ابناً له، وكان يرى فيه أمير المستقبل لشيزر، ووارث الملك من بعده، فكان يكلِّفه من الأمور ما يتطلّب شجاعة وجرأة، واشترك أسامة في المعارك التي دارت بين أسرته، وبين الصليبيين دفاعا عن مدينتهم ((شيزر))[(٤)]. غير أنَّ الأمور جرت على

(١) انظر: سير أعلام النبلاء ١٣/٢٩٠.
(٢) انظر: لباب الآداب لأسامة بن منقذ ص ٢١، تحقيق: أحمد محمّد شاكر.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٣/٢٩١.
(٤) انظر: أسامة بن منقذ –حياته وشعره– د. حسن عباس ١/٧٩-٨٠.

غير ما يشتهي أسامة، فقد تغيّر عليه عمُّه سلطان بعد أن رزقه الله ولداً، وخشي عليه بأسه، وأن يؤول إليه الملك دونه، ويقع الجفاء بينهما، ويزمع أسامة أمره على ترك البلد الذي أحبَّه، ففارق والديه وإخوته لأنه أبى أن يرى أحداً فوقه، وهو صاحب الملك الذي ائتمنه عليه أبوه، فسلبته منه أطماع عمِّه، وكان مقرَّراً له قبل أن يرزقه الله البنين(١).

ومضى أسامة إلى الموصل، والتحق بعماد الدِّين زنكي، الذي صار أكبر أبطال الحروب الصليبية في وقته، وأول خطر حقيقي داهم الصليبيين، فانتظم في جنده، وحارب تحت قيادته في عدَّة معارك، ولكنَّه لم ينس وطنه الأول شيزر عندما هاجمه الروم والفرنج سنة ٥٣٣هـ، فعاد إليه مسرعاً، ودافع عنه أمام أعدائه، وأبلى بلاء حسنا، وهكذا دخل بلده مظفَّراً، ولكنَّه وجد أباه قد فارق الحياة قبل عامين، وشعر بضرورة بقائه بين آله ليعوضهم ما فقدوه من عطف أبيه(٢).

أمَّا عمُّه فقد شعر أنّ أركان ملكه بدأت تتصدَّع أمام ابن أخيه الفارس الظَّافر، ويفسد الأمر عليه بعد أن رأى معظم آل منقذ يميلون إليه، وبلغ الخلاف منتهاه، وأمره عمُّه بمغادرة ((شيزر)) هو وإخوته، فتشتَّتوا في كلِّ مكان، وكان في ذلك الخير لهم، فإنهم نجوا من الزَّلازل التي هدَّمت شيزر، وقضت على بني منقذ بأسرهم، وذهبت بملكهم سنة ٥٥٢هـ(٣).

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصّليبية بمصر والشام د. أحمد أحمد بدوي ص ١٧٢.
(٢) انظر: الأدب في بلاد الشَّام عصور الزّنكيين والأيوبيين والمماليك د. عمر موسى باشا ص ٢٧٠.
(٣) انظر: لباب الآداب لأسامة بن منقذ ص ١٩.

ويبكي أسامة قومه الذين غادرهم، ويندب أقرباءه الذين هلكوا تحت أنقاض الحصن، وتحوّلوا إلى ركام، وهو حال مدينته ((شيزر))، حيث يقول في بعض قصائده:

حَيَّا رُبُوعَكِ مِنْ رُبىً ومَنَازِلِ سَارِي الغَمَامِ بكلّ هَامٍ هَاملِ[1]
وَسَقَتْكِ يَا دَارَ الهَوَى بَعْدَ النَّوَى وَطْفَاءُ[2] تَسْفَحُ بِالهتُونِ الهَاطِلِ

أَبْكِيكِ أَمْ أَبْكِي زَمَانِي فيكِ؟ أَمْ أَهْلِيكِ؟ أَمْ شَرْخ الشَّبَابِ الرَّاحِلِ؟
دَرَسَتْ مَنَازِلُهُمْ، وأوحش منهُمُ مَأْنُوس أنديةٍ وعِزُّ مَحَافِلِ
ذَهَبُوا ذَهَابَ الأَمْسِ ما مِنْ مُخْبِرٍ عنهم، وزالوا كالظِّلال الزَّائِلِ
وبَقِيتُ بَعْدَهم حَلِيفَ كآبةٍ مَسْتُورَةٍ بِتَحَمُّلٍ وتَحَامُلِ
سَعِدُوا بِرَاحَتِهم وهَا أَنَا بَعْدَهُم في شقوةٍ تُضْنِي، وهَمٍّ دَاخِلِ[3]

وعندما وقف أسامة على ربوع ((شيزر))، وتأمل مصيرها، وتذكَّر طفولته وشبابه الرَّاحل وبكاها بكاء مرّاً، ولم يكتف بذلك، بل صوّر هول الفاجعة على نفسه في قصيدة أخرى، حيث قال:

مَا اسْتَدْرَجَ الْمَوتُ قَوْمِي في هَلاَكِهم وَلاَ تَخَرَّمَهُم مَثْنَى وَوُحْدَانَا
مَاتُوا جميعاً كَرَجْعِ الطَّرْفِ وانْقَرَضُوا هَلْ مَا تَرَى تَارِكٌ لِلْعَينِ إنسانَا

---

(١) هَمَلَتْ عَينُه: فاضتْ
(٢) سَحابةٌ وَطْفاءُ: مسترخية لكثرة مائها، أو هي الدَّائمة السَّح.
(٣) ديوان أسامة بن منقذ ص ٣٥٤-٣٥٥.

لَمْ يَتْرُكِ الْمَوتُ مِنْهُمْ من يُخَبِّرُنِي عَنْهُمْ، فَيُوضِحُ مَا لاَقَوْهُ تِبْيَانَا
وَيْحَ الزَّلاَزِلِ، أَفْنَتْ مَعْشَرِي، فإذا ذَكَرْتُهُم، خِلْتنِي فِي القَومِ سَكْرَانَا
أَخْنَتْ عَلَى مَعْشَرِي الأَدْنَينَ، فَاصْطَلَمَتْ[1] مِنْهُم كُهُولاً، وشُبَّاناً، وَوُلْدَانَا
لَمْ يَحْمِهِمْ حِصْنُهُمْ مِنْهَا، وَلاَ رَهِبَتْ بَأْساً تَنَاذَرُه[2] الأَقْرَانُ أَزْمَانَا
أَتَاهُمُ قَدَرٌ لَمْ يُنْجِهِمْ حَذَرٌ مِنْهُ، وَهَلْ حَذَرٌ مُنْجٍ لِمَنْ حَانَا
إنْ أَقْفَرَتْ ((شَيْزَرٌ)) مِنْهُمْ، فَهُمْ جَعَلُوا مَنِيعَ أَسْوَارِهَا بِيضاً وخُرْصَانَا[3]
كَانُوا مَلاذاً لأَيْتَامٍ وأَرْمَلَةٍ وَبَائسٍ فَاقِدٍ أهلاً وَأَوْطانَا
إذَا أَتَيْتَهُمُ أَلْفَيْتَ شَطْرَهُمُ مُسْتَرْفِدِينَ، وَزُوَّاراً، وضِيْفَانَا[4]

لقد مضى أسامة يوم أُخرج من شيزر إلى دمشق، فأقام بها، واتصل بحاكمها معين الدِّين أُنُر، الذي رحَّب بأسامة واعتمد عليه في تصريف الشُّؤون السِّياسيَّة، وقد نجح أسامة في ذلك نجاحاً رفع مكانته في دمشق[5]، ولكنّ هذا النَّجاح أكثر من حسَّاده ومنافسيه، فكثرت الوشاية من حوله بهدف إقصائه عن معين الدِّين، لأجل ذلك لم يصف المقام لأسامة في دمشق، بعد أن لاحظ تغيُّر معين الدِّين معه، فقرّر الارتحال إلى القاهرة[6]،

(١) اصطلمت: استأصلت.
(٢) تناذره: أنذر بعضهم بعضا.
(٣) الخُرْصان: الرِّماح.
(٤) ديوان أسامة بن منقذ ص ٣٥٦-٣٥٨.
(٥) انظر: الرَّوضتين في أخبار الدولتين ١/٢٦٤.
(٦) انظر: الحياة الأدبيَّة في عصر الحروب الصَّليبيَّة ص١٧٣.

ولكنّه لم يذهب بصمت، فقد رأى أن يبيِّن لأميره سبب ارتحاله، وأن يعاتبه على إصغائه لأقاويل الوشاة وتصديقها، وهو ما يعبِّر عنه أسامة في قصيدته الميميَّة التي عارض بها ميميَّة المتنبِّي التي عاتب فيها سيف الدَّولة، يقول:

بلِّغ أَمِيرِي: مُعِينَ الدِّينِ مَأْلُكَةً[1] مِنْ نَازِحِ الدَّارِ لَكِنْ وُدُّه أَمَمُ

هَلْ في القضِيَّة يَا مَنْ فَضْلُ دَوْلَتِهِ وعَدْلُ سِيرَتِهِ بَينَ الْوَرَى عَلَمُ

تَضْيِيعُ وَاجِبِ حَقِّي بعْدَ مَا شَهِدَتْ بِهِ النَّصيحةُ والإِخْلاَصُ وَالْخَدَمُ

وَمَا ظَنَنْتُكَ تَنْسَى حَقَّ مَعْرِفَتِي "إِنَّ المعَارِفَ في أَهْلِ النُّهَى ذِمَمُ[2]"

وَلاَ اعْتَقَدْتُ الَّذِي بَينِي وبَينَك مِنْ وُدٍّ، وإِنْ أَجْلَبَ الأَعْدَاءُ يَنْصَرِمُ

لَكِنْ ثِقَاتُكَ مَا زَالُوا بِغِشِّهِمُ "حتَّى اسْتَوَتْ عِنْدَكَ الأَنْوَارُ والظُّلَمُ[3]

واللهِ مَا نَصَحُوا لَمَّا اسْتَشَرْتَهُمُ وكُلُّهُم ذُو هَوىً في الرَّأي مُتَّهَمُ

كَمْ حَرَّفُوا مِنْ مَقَالٍ في سَفَارَتِهِمْ وَكَمْ سَعَوْا بِفَسَادٍ، ظَلَّ سَعْيُهُمُ[4]

---

(١) الْمَأْلُكَة: الرِّسالة.

(٢) تضمين لقول المتنبِّي في ميميَّته الَّتي وجَّهها إلى سيف الدَّولة، حيث قال:

وَبَيْنَنَا لَوْ رَعَيْتُم ذاكَ مَعْرِفَةٌ إِنَّ المعَارِفَ في أَهْلِ النُّهَى ذِمَمُ

((انظر: ديوان المتنبِّي بشرح أبي البقاء العكبري ١٩٢/٣)).

(٣) تضمين لقول المتنبِّي في القصيدة نفسها حيث يقول:

ومَا انْتِفَاعُ أخي الدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأَنْوَارُ والظُّلَمُ

((انظر: ديوانه ١٩٣/٣)).

(٤) ديوان أسامة بن منقذ ص ١٩٦-١٩٧.

ترك أسامة دمشق، وسافر إلى القاهرة، فوصل إليها في جمادى الثانية سنة ٥٣٩هـ في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله، فأكرمه الخلييفة أيَّما إكرام، وأقطعه إقطاعاً، عاش به في رغد من الحياة[١]، ثمّ مات الخليفة الحافظ وولي الخلافة ابنه الأصغر الظَّافر بأمر الله إسماعيل، وكان عمره سبع عشرة سنة تقريبا، وقد وقعت بعد فترة وجيزة أحداث وفتن كبار، قتل فيها الخليفة الظافر ووزيره ابن السَّلاَّر[٢]، فخرج أسامة من مصر إلى دمشق فأقام بها هناك مدّة، ثم انتقل بأهله وولده إلى ((حصن كيفا))[٣] وهناك وجد الرَّاحة والهدوء، وعكف على البحث والدَّرس والتَّأليف، وربَّما اختار أسامة هذا المكان لما فيه من مكتبات غنيّة، أمدَّته بروافد كثيرة ظهر أثرها في مؤلفاته الَّتي دوَّنها[٤].

ولَمَّا عاد صلاح الدِّين الأيُّوبي إلى دمشق خرج أسامة لاستقباله والتَّرحيب به، فقد رأى فيه أسامة الفارس البطل المنقذ للبلاد الإسلامية، الّذي طرد الصَّليبيين من المدن الَّتي احتلُّوها[٥]. وكانت تربطه به صلات وثيقة عندما كانا معا في بلاط

(١) وفيات الأعيان ١/٦٤.
(٢) انظر: الاعتبار ص ١١٩.
(٣) حصن كيفا: بلدةٌ مشرفةٌ على نهر دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. ((انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي ٢/٢٦٥)).
(٤) انظر: أسامة بن منقذ –حياته وشعره– ص ١/١٥٣.
(٥) انظر: لباب الآداب لأسامة بن منقذ ص ٢٣.

نور الدِّين محمود، فأكرمه صلاح الدِّين، وجالسه، وآنسه، وذاكره في الأدب، وكان يستشيره فيما يلمُّ به، وإذا مضى إلى الغزو كاتبه وأخبره بوقائعه[١]، وكان صلاح الدين معجبا بشعر أسامة، شغوفا بقراءة ديوانه وتأمُّل خواطره، واستحسان روائع قصائد[٢].

ومكث أسامة في دمشق إلى أن مات بها في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٥٨٤هـ[٣]، بعد عمر يناهز ٩٦ سنة، ودفن في سفح جبل قاسيون بدمشق.

آثاره ومؤلفاته:

ترك أسامة عدَّة مؤلفات منها:

١- كتاب (لباب الآداب)، وقد حقّقه ونشره الأستاذ أحمد محمَّد شاكر.
٢- كتاب (الاعتبار)، ويتحدّث فيه عن سيرته الذَّاتيَّة، وحياته، ومشاهداته، ورحلاته، وقد كتبه أسامة وهو ابن تسعين سنة.
٣- كتاب (البديع في نقد الشِّعر) وفيه جمع ما تفرَّق في كتب العلماء المتقدِّمين المصنَّف في نقد الشِّعر، وهو مطبوع بتحقيق: علي مهنَّا.
٤- كتاب (المنازل والدِّيار) وقد كتبه أثناء إقامته في حصن كيفا، والدَّافع له على كتابته ما حلَّ ببلدته ((شيزر)) من الزَّلازل، وهو يتضمَّن شواهد شعريَّة كثيرة عن المنازل، والدِّيار، والأطلال، والدِّمن، وغيرها، وهو مطبوع.

(١) انظر: لباب الآداب لأسامة بن منقذ ص ٢٣.
(٢) انظر: الرَّوضتين في أخبار الدَّولتين ١/٢٦٤.
(٣) انظر: وفيات الأعيان ١/٦٤.

٥- كتاب العصا، وقد أورد فيه شواهد شعريَّة ونثريَّة تتحدَّث عن العصا.
٦- ديوان شعره، ذكره ابن خلِّكان، وذكر أنَّه في جزأين، وهو مطبوع بتحقيق الدكتور: أحمد أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد.

وهناك مؤلفات أخرى لأسامة أشار إليها بعض المؤرِّخين(١)، ولكنَّها مفقودة، ومنها على سبيل المثال:

١- مختصر مناقب عمر بن الخطَّاب –رضي الله عنه-.
٢- الشَّيب والشَّباب.
٣- كتاب القضاء.
٤- التَّأسِّي والتَّسلِّي.
٥- ذيل يتيمة الدَّهر.
٦- أخبار البلدان.

❁❁❁❁

(١) راجع مثلا: معجم الأدباء لياقوت الحموي ٢٠٨/٥، الوافي بالوفيات لصلاح الدِّين الصَّفدي ٣٨٢/٨، ومقدِّمة لباب الآداب ص ٢٦-٢٧ تحقيق أحمد محمَّد شاكر.

المبحث الثاني

موضوعات شعر الأخلاق عند أسامة بن منقذ

أولا: علوّ الهمَّة:

من مكارم الأخلاق الّتي برزت في ديوان أسامة بن منقذ علوّ الهمَّة، وما يرجع إليها من ظواهر خلقيّة رفيعة، كالأنفة، وعزّة النَّفس، والتَّرفُّع عن الصَّغائر، والطُّموح إلى المعالي.

وللقرآن الكريم والحديث النَّبوي الشَّريف دعوات واضحة إلى التَّحلِّي بهذا الخلق الإسلاميّ النَّبيل بمظاهره المتعدِّدة، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]، وقول الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم–: "إنّ الله يحبُّ معالي الأمور، ويكره سفاسفها، فإذا سألتم الله الجنَّة فاسألوه الفردوس فإنَّه أعلى الجنَّة"[2]. وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: "اليد العليا خيرٌ من اليد السُّفلى"[3].

ولعلوّ الهمَّة أثر حسن في نفس صاحبها، فهي تصون وجهه، وتمنحه مقوِّمات العزّة والكرامة، وحرِّيَّة الرّأي، والثَّباب أمام الأهواء والنَّزوات[4].

وقد جاء شعر أسامة معبِّرا عن هذا المعنى النَّبيل، ملتزماً به، فهو لا

(١) سورة المنافقون، الآية ٨.
(٢) صحيح مسلم ٥٣١/١.
(٣) فتح الباري بشرح البخاري ٤٧٦/٤.
(٤) انظر: الاتِّجاه الإسلامي في الشِّعر الأندلسي في عهدي الطَّوائف والمرابطين د. منجد مصطفى بهجت ص ٢١٩-٢٢٠.

يرى أن تخضع نفسه لأحد من الخلق، وإن علت منازلهم ومراتبهم؛ لأنَّ هؤلاء ليس بأيديهم رزقه ولا أجله، وإنَّما ذلك بيد الله –عزَّ وجلَّ– فهو تعالى وحده الذي تخضع له الرِّقاب، وتعنو له الوجوه، حيث يقول:

عَلاَمَ أَخْضَعُ في الدُّنْيا لِمَنْ رَفَعَتْ وَمَا بِأَيدِيهِمُ رِزْقِي وَلاَ أَجَلِي

مَا قَدَّرَ اللهُ لاَ أَسْطِيعُ أَدْفَعُهُ وَمَا لَهُمْ فِي سِوَى الْمَقْدُورِ مِنْ عَملِ(١)

ويترفَّع الشَّاعر عن هجاء اللّئام أو التعرُّض لهم في شعره، مهما جنوا عليه، أو حاولوا النَّيل منه؛ لأنه ليس من أخلاقه أن يذكر كلّ ذي نقص بما فيه، ولذا فهو يعصي شعره في هذا الجانب، ويطيعه في جوانب أخرى مضيئة، حيث يقول عن نفسه:

ظَلَمْتُ شِعْرِي وَلَيسَ الظُّلْمُ من شيمي يُطِيعُنِي حِينَ أَدْعوهُ، وَأَعْصِيهِ

يَهُمُّ أَنْ يَذْكُرَ القَوْمَ اللِّئَام بِمَا فيهم، فَأَزْجُرُه عَنْهُمْ، وَأُثْنِيهِ

وليسَ مِنْ خُلُقِي ثَلْبُ الْغَنِيِّ وإِنْ جَنَى، وَلاَ ذِكْرُ ذِي نَقْصٍ بِمَا فِيهِ(٢)

ويرى الشَّاعر أنَّ همَّته بالنَّجم، فهي عالية رفيعة، ولا تهزُّها النَّوائب، ولا تنال منها حوادث الزَّمان، ولا توهن من عزمها، حيث يقول مبيِّناً حاله مع حاسديه وأعدائه:

إنْ سَرّ أَعْدَائِي أَنْ عَضَّنِي دَهْرِي بِمَا أَذْهَبَ مِنْ مَالي

فهمَّتي بالنَّجم معقودةٌ مَا حَطَّها مَا حَالَ مِنْ حَالِي

(١) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٩٢. تحقيق: د. أحمد أحمد بدي وزميله.
(٢) المصدر السَّابق ص ٢٩٣.

كالنَّار إنْ نَكَّسها قَابِسٌ لم يَتَنَكَّسْ نُورُها العَالي[1]

ويخاطب أسامة الشَّامتين الذين يسرّهم ما يسوؤه، ويفرحهم ما يناله من نصب وأذى وفواجع بخطاب الرَّجل الواثق بنفسه ذي الهمَّة العالية، حيث يقول:

قُلْ لِلَّذِينَ يَسُرُّهُمْ مَا سَاءَنَا: لاَ زَايَلَتْكُمْ حَسْرَةٌ وَتَلَهُّفُ
شَمْلِي، بِحَمْدِ اللهِ بَعْدَ تَشَتُّتٍ وتَفَرُّقٍ، مُتَجَمِّعٌ مُتَأَلِّفُ
والمالُ إِنْ غَالَ الزَّمَانُ تِلاَدَهُ وَسَلِمْتُ، سَدَّ مَكَانَهُ الْمُسْتَطْرَفُ[2]

ويتأمّل الشَّاعر في صروف الزَّمان، وتقلُّباته، وعدم ثباته على حال، فلم يُبْق ذلك مساحةً للاغتباط والفرح الشَّديد؛ لتحوّل تلك الحال بعد وقت قصير، حيث يعبِّر عن رؤيته الفاحصة وهمَّته العالية، فيقول:

لَمَّا رَأيتُ صُرُوفَ هَـ ـذَا الدَّهرِ تَلْعَبُ بِالْبَرَايَا
يَعْلُو بِهَا هَذَا وَيَهْـ ـبِطُ ذَا، وقَصْرهُم الْمَنَايَا
وَرَأَيْتُهُ مُسْتَرْجِعاً نَزْرَ الْمَوَاهِب وَالعَطَايَا
مُتَغَايِرَ الأَحْوَالِ مُخْـ ـتلف الضَّرَائِبِ[3] والسَّجَايَا
لاَ نِعْمَةٌ فِيهِ تَدُو مُ، ولا تَدُومُ بِهِ البَلاَيَا
لَمْ أَغْتَبِطْ فِيهِ بِفَا ئِدَةٍ، ولَمْ أخْشَ الرَّزَايَا

(١) المصدر السَّابق ص ٢٩٢.
(٢) المصدر السّابق ص ٢٨٩.
(٣) الضَّرائب: الطَّبائع.

حتَّى بعد أن تقدّم السِّنُّ بالشاعر، ووهن عظمه، وضعفت قواه لكنَّ عزيمته لم تضعف، ولم تنقبض نفسه عند الملمَّات، فهو كالطَّود الذي يواجه العواصف بهمَّة عالية، حيث يقول:

أَصْبَحتُ كَالنَّسْرِ خَانَتْهُ قَوَادِمُهُ لاَ تَسْتَقِلُّ[1] جَنَاحَاهُ إذا نَهَضَا

أَرُوحُ مِنْ نَائِبَاتٍ لاَ تُغِبُّ وِمنْ هُمُومِ عَيشٍ كَمَا لاَ أشْتَهِي غَرَضَا

لَكِنَّنِي قَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ[2] فَمَا يَرَانِي لِخَطْبٍ نَابَ مُنْقَبِضَا

أَلْقَى الْحَوَادِثَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ، ومقـ ـدورَ القَضَاءِ بِتَسْلِيمٍ لَهُ ورِضَا[3]

❁❁❁❁

(١) استقلَّه: حمله ورفعه.
(٢) حَلَب فلانٌ الدّهرَ أشْطُرَه: مرَّ به خيره وشرّه.
(٣) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٨٨.

ثانيا: الكرم:

من مكارم الأخلاق وآداب الإسلام الرفيعة التي تغنَّي بها الشعراء منذ القدم الكرم والجود، وعدم التحسُّر على ذهاب ما في اليد.

فالكرم طبع في النَّفس السَّويَّة، وله أثر بارز في تعزيز أواصر الأُخوَّة والمحبَّة بين أفراد المجتمع، ونبذ كل ما من شأنه أن يعكِّر صفو تلك الروابط أو يحلّ عراها من حسد، وحقد، وكراهية.

وفي شعر أسامة دعوة إلى الجود، واكتساب المكارم التي تخلِّده حتى بعد مماته، حيث يقول:

سَأُنْفِقُ مَالِي فِي اكْتِسَابِ مَكَارِمٍ أظلُّ بِهَا بَعْدَ الْمَمَاتِ مُخلَّدَا

وأسعى إلى الهيجاء لا أرهب الرَّدى ولا أَتَخَشَّى عاملاً[1] ومهنَّدَا

فإنْ نِلْتُ ما أَرْجُو فَلِلْجُودِ ثُمَّ لِي وإنْ مِتُّ خلَّفتُ الثَّنَاءَ المؤبَّدا[2]

ويشير الشَّاعر إلى حاله مع الكرم والسَّخاء في حالي اليسر والعسر، وأنه لا يتوقف أبدا عن تلك الخصلة الكريمة، حيث يقول:

مَا كَفَّ كَفِّيَ عَنْ جُودِي بِمَوْجُودِي نَوائِبٌ، وَمُلِمَّاتٍ لَحَتْ[3] عُودِي

في اليُسْرِ أَبْذلُ مَيْسُورِي، وأَبذلُ في عُسْرِي لِطَالِبِ رِفْدِي شَطْرَ مَوْجُودِي[4]

ويكرِّر أسامة هذا المعنى في محافظته على تلك الخصلة الأخلاقية، وأنه

(١) عامل الرُّمح: صدره. والمهنَّد: السيف.
(٢) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٨٤.
(٣) لحا العود: قشره.
(٤) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٨٥.

قد يسلو عن أمور كثيرة شُغف بها إلاّ خصلة الكرم التي يعتزّ بها عظيم الاعتزاز، حيث يقول:

سَلَوتُ عَنْ كُلِّ حَالٍ كُنْتُ ذَا شَغَفٍ بِهَا، وَلَمْ أَسْلُ فِي حَالٍ عَنِ الكَرَمِ

مَا غَالَ دَهْرِيَ وَفْرِي فِي تَقَلُّبِهِ إلاَّ جعلتُ النَّدى سِتْراً عَلَى العَدَمِ[1]

ولذا فهو يدعو بشكل واضح إلى تلك الخصلة الحميدة التي يتزيَّن بها الكرماء، ويكتسبوا مجداً وخلوداً، إذ يقول:

تَلَقَّ ذَوِي الْحَاجَاتِ بِالبِشْرِ إنَّه إلى كرماء النَّاس أشهى من الجَدَا[2]

عَسَى مَنْ يُرَجِّي سَيْبَك[3] **اليَوْمَ يَغْتَنِي فَتُصْبِحُ فيمن تَرْتَجِي سَيْبَه غَدَا**[4]

ولذا فهو ينفق من ماله، ويقدِّم كرمه وعطاءه لمن يستحقّ، ولا يخشى أن يفنى كلُّ ماله فيما يقدِّم، لأنه يثق بأنَّ ما قدَّمه اليوم سيأتي به الغد، ولذا فهو في أريحيَّة وسعادة ينقلها إلى كلِّ من يلومونه في كثرة الإنفاق، يقول:

يَقُولُون لِي: أَفْنَيتَ كُلَّ ذخيرةٍ وأَنْفَقْتَ مَالاً لاَ تَجُودُ بِهِ النَّفْسُ

فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَرَّقْتُ مَا جَمَعَتْ يَدِي وأَرْجُو غداً يَأْتِي بِمَا أَذْهَب الأَمْسُ[5]

❁❁❁❁

(١) المصدر السابق ص ٢٧٩.
(٢) الجدا: العطيَّة.
(٣) السَّيب: العطاء.
(٤) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٨٥.
(٥) المصدر السَّابق ص ٢٨٧.

ثالثا: الصبر:

من القيم الأخلاقيّة التي دعا إليها أسامة بن منقذ في شعره الصّبر، وهو خلق إسلاميٌّ رفيع يمنح صاحبه حصانةً ذاتيَّة ضدّ الصَّدمات والشَّدائد التي تزدحم بها الحياة، ويعين المتخلِّق به على اجتياز تلك العقبات التي تقف في وجهه، ويجعله ذا عزيمة قويَّة وثبات.

والمتأمِّل في شعر أسامة يجد اهتمامه بهذا الموضوع الشِّعري في مواضع كثيرة من ديوانه، فقد كان الصَّبْر هو ينبوع الأمل ومصدر الرَّاحة والاطمئنان، والثِّقة والأمان، وهو الجسر الذي عبر فوقه كلّ الصِّعاب والعوائق التي واجهته في حياته، ومنها طرده من بلدته ((شيزر))، واغترابه عنها وعن أهله وأحبابه مدّة من الزَّمن، الأمر الذي ولَّد في نفسه هذا التَّعبير القويّ الواثق، المتدرِّع بالصَّبر، حيث نجده يخاطب زوجته وهو يعيش في غربته الحزينة، فيقول في جانب من قصيدته النُّونيَّة:

ولاَ تَحْمِلِي همَّ اغْتِرَابِي، فَلَمْ أَزَلْ غَرِيبَ وَفَاءٍ في الوَرَى وبَيَانِ

ولاَ تَسْأَلِينِي عَنْ زَمَانِي فَإِنَّنِي أُنَزِّه عَنْ شَكْوَى الخُطُوبِ لِسَاني

وَلَكِنْ سَلِي عَنِّي الزَّمانَ، فإنَّهُ يُحدِّثُ عَنْ صَبْرِي علَى الحَدَثَانِ

رَمَتْنِي اللّيالي بِالْخُطُوبِ جَهَالةً بِصَبْرِي عَلَى مَا نَابَنِي وَعَرَاني

فَمَا أَوْهَنَتْ عَظْمِي الرَّزَايَا وَلاَ لَهَا بِحُسْنِ اصْطِبَارِي في الْمُلِم يَدَانِ

وَمَا أَنَا مِمَّنْ يَسْتَكِينُ لِحَادِثٍ ولا يَمْلأُ الهَوْلُ المَخُوفُ جَنَانِي(١)

وتحلُّ حادثة أخرى بأسامة، وذلك عندما يفقد ابنه أبابكر، فيتأثَّر لذلك، وتغالبه اللَّوعة، ويداخله الحزن، ولكنّه لا يستسلم لذلك، بل يقف مع نفسه وقفة محاسبة وعتاب، ويسألها أن تتدرَّع بالصَّبر، وتتحلَّى به، فهذه حوادث الزَّمان التي

(١) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٧٨.

لا مناص منها لأحد، ولا يعيد الحزن ما فقده الإنسان فيها، وإنّما الصَّبر هو أجمل ما يتحلّى به الإنسان أمام تلك الخطوب، حيث يقول مخاطبا نفسه:

يَا نَفْسُ أَيْنَ جمِيلُ صَبْـ ـرِكِ حِينَ تَطْرُقُكِ الْخُطُوبُ؟
أَيْنَ احْتِمَالُكِ مَا تَكَا دُ الرَّاسِياتُ لَهُ تَذُوبُ؟
وَثَبَاتُ جَأْشِكِ حِينَ تَضْـ ـطَرِبُ الْجَوَانِحُ والقُلُوبُ؟
مَاذَا دَهَاكِ؟ إِلَى مَتَى هَذَا التَّأَسُّف والنَّحِيبُ؟
كَيْفَ اسْتَزَلّكِ بَعْدَ صِدْ قِ يَقِينِكِ الأَمَلُ الْكَذُوبُ؟
أَرَجَوتِ أَنْ سَيَرُدّ مَنْ غَالَ الرَّدَى دَمْعٌ سَكُوبُ؟
أَمْ خِلْتِ أنَّ نَوَائِبَ الدُّ نْيَا لِغَيرِكِ لاَ تَنُوبُ؟
هَيْهَاتَ، كُلُّ الخَلْقِ مِنْ نَكَبَاتِهَا لَهُمُ نَصِيبُ
مَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى عَلَى مَرِّ الزَّمانِ لَهُ حَبِيبُ؟
لَكِنْ يُسَلِّي النَّفْسَ أنَّ لِحَاقَنَا بِهِمُ قَرِيبُ
وَإِلَيهِمْ مِنْ بَعْدِ غَيْـ ـبَتِهِمْ، وَإِنْ طَالَتْ نَئُوبُ[1]

ولا يجد أسامة سوى الصَّبر أمام الخطوب التي تواجهه، والحوادث التي تلاقيه، وهو صبر جميل؛ لأنه مقترن بالاحتساب والرِّضا بالأقدار، حيث يقول:

لأَصْبِرَنَّ لِدَهْرِي صَبْرَ مُحْتَسِبٍ حَتَّى يَرَى غَيرَ مَا قَدْ كَانَ يَحْسِبُهُ

(١) ديوان أسامة بن منقذ ص ٣٤٥-٣٤٦.

وأسْتَمِيتُ لِمَا تَأْتِي الْخُطُوبُ بِهِ لِيَعْلَمِ الْخَطْبُ أَنِّي لَسْتُ أَرْهَبُهُ
إِنْ غَالَبَتْنِي عَلَى وَفْرِي[1] نَوَائِبُه فَحُسْنُ صَبْرِيَ فِي اللأْوَاءِ[2] يَغْلِبُه
أَوْ أَبْعَدَتْنِيَ عَنْ أَهْلِي وَعَنْ وَطَنِي فَأَبْعَدُ الْفَرَجِ الْمَرْجُوِّ أَقْرَبُهُ[3]

لذا يتردَّد في شعر أسامة كثيراً الدَّعوة إلى التَّحلِّي بالصَّبْر، والتَّدرُّع به أمام الأقدار التي لا يسلم منها أحد، مبيِّنا أنَّ عاقبة الصَّبر حلوةٌ عذبة، حيث يقول:

لاَ تَجْزَعَنَّ لِخَطْبِ فَكُلُّ دَهْرِكَ خَطْبُ
وحَادِثاتُ اللّيَالِي مُمِلَّةٌ ما تُغِبُّ
تَرُوحُ سَلْماً، وتَغْدُو عَلَى الْفَتَى وَهْيَ حَرْبُ
ولاَ تَضِقْ بِاصْطِبَارٍ ذَرْعاً، إذا اشْتَدَّ كَرْبُ
فَصَبْرُ يَومِك مُرٌّ وفي غَدٍ هُوَ عَذْبُ
كَمْ صَابَر الدَّهْرَ قومٌ فَأَدْرَكُوا مَا أَحَبُّوا[4]

ويرى الشَّاعر أنَّ العسر يتبعه يسر، وأنَّ كلاّ من الحالين لا يدوم، وهو ما يرغِّب في الصَّبر والمصابرة أمام الفواجع والحوداث، حيث يقول:

إنْ فَاجَأَتْكَ اللَّيَالي بِمَا يَسُوءُ فَصبْرَا
فَالدَّهرُ يُرْهِقُ عُسْراً ويَتْبَعُ الْعُسْر يُسْرَا

(١) الوَفْر: الغنى.
(٢) اللأواء: الشِّدَّة.
(٣) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٨١.
(٤) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٨٠.

لَو دَامَ مَا سَاءَ مِنْهُ لَدامَ مَا كَانَ سَرَّا[1]

وأمام ذلك لا بدَّ من الصَّبر، فما يراه الإنسان في هذه الحياة يتقلَّب ويتبدَّل، فالنَّعيم لا يدوم، كما أن الحزن لا يدوم، وهو ما أشار إليه أسامة في قوله:

كلُّ شَيءٍ تَرَاهُ في هذه الدُّنْ يَا خَيَالٌ إِذَا انْتَبَهَتَ يَزُولُ
ما يدُوم النَّعيمُ فيها ولاَ البُؤْ سُ، مَتَاعُ الدُّنيَا مَتَاعٌ قَلِيلُ
والَّذي يُصرِفُ الْهُمُومَ إِذَا مَا ضِقْتَ ذَرْعاً بِهِنَّ صبْرٌ جَمِيلُ[2]

وهذا المعنى يتردّد لدى الشَّاعر في أكثر من موضع[3]، حيث يؤكِّد على هذه الرُّؤية، ويدعو إلى ترك الأسف على كلّ فائت، أو الحزن على كل مفقود، فالدنيا في تصوُّره كظلٍّ زائل، والعيش فيها كحلم في منام، ولذا كان الصبر والرِّضا والتَّسليم بالقدر هو أعظم دواء لكلّ ما يعترض الإنسان، يقول أسامة:

لاَ تَأْسَفَنّ لِذَاهبٍ أو فَائِت يُرْجَى، ولاَ تُتْبِعُه زَفْرَةَ نَادِمِ
واصْبِرْ عَلَى الْحَدَثَانِ صَبْرَ مُسْلِّمٍ مُتَيقِّنٍ أنْ لَيْسَ مِنْهُ بِسَالِمِ
فَغَضَارة الدُّنْيا كظلِّ زَائلٍ والْعَيْشُ فيها مِثلُ حُلْمِ النَّائمِ
والدَّهرُ يَمْنَحُ، ثمَّ يَمْنَع نَزْر ما أَعْطَى، ويَبْخَلُ بالسُّرُورِ الدَّائِمِ
والنَّاسُ مَنْ لَمْ يَصْطَبِرْ لِمُصَابِه صَبْرَ الرِّضا صَبَرَ اصْطِبَارَ الرَّاغِمِ[4]

(١) المصدر السابق ص ٣٠٦.
(٢) المصدر السابق ص ٣٠٦.
(٣) راجع: ديوانه ص ٢٨٨-٢٨٩، ٢٩٦، ٢٩١، ٢٨٢، ٢٨٦، ٢٩٥، ٣١٠.
(٤) ديوان أسامة بن منقذ ص ٣١٠.

رابعا: خصال أخرى:

من المعاني الأخلاقيَّة التي خالجت نفس الشَّاعر، ودعته إلى التَّعبير عنها، التَّحلِّي بحسن الخلق، ومجانبة كل قبيح، حيث يقول أسامة وقد جاوز السِّتِّين من عمره:

دَعْ ذَا، فَمَا عُذْرُ الْفَتَى فِي غَيِّه، والفُودُ[1] شَائِبْ
والأَرْيَحيَّةُ تَمْنَعُ الـ ـكُرَمَاءَ أنْ يَغْشُوا المعَايِبْ
والْجَهْلُ يَأْبَى أنْ يكُو نَ لَهُ أَخُو السِّتِّينَ

كما أنّ القناعة من الخصال الحميدة التي يتحلَّى بها المرء، ويتجمَّل بما تحمله من عزَّة نفس وأنفة، حيث ينزِّه الشَّاعر نفسه عن المطامع الدُّنيويَّة فيقول:

نَزَّهْتُ نَفْسِيَ عَنْ منِّ الرِّجال، عَلَتْ بهم مَراتبُ الدُّنيا، وإنْ
إِذَا الْمَطَامِعُ قَادَتْنِي إِلَى طَمَعٍ يُزْرِي، فَمَاذَا أَفَادَ الشَّيبُ

ومصاحبة الأخيار، ومجالسة الأفاضل ممَّا يؤثِّر في سلوك المرء، ويوجِّهه إلى الأخلاق الحميدة التي ينبغي التَّحلِّي بها، كما أنّ مصاحبة السُّفهاء والأشرار ممَّا يجرُّ إلى الوبال، ويقود إلى النَّدامة، وهو ما نبَّه إليه أسامة في جانب مهمّ، وهو اختيار الأصحاب، حيث يقول:

---

(١) الفُود: معظم شعر الرّأس مما يلي الأُذن.
(٢) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٨١.
(٣) المصدر السابق ص ٢٨٢.

عِشْ واحداً، أو فالتَمِسْ لك صَاحِباً في مَحْتِدِيْ وَرَعٍ، وطِيبِ نِجَارِ

واحْذِرْ مُصَاحَبَةَ السَّفِيهِ، فَشَرُّ ما جَلَبَ النَّدَامَةَ صُحْبَةُ الأشْرَارِ

والنَّاسُ كَالأشْجَارِ: هَذَا يُجْتَنَى مِنْهَا الثِّمَار، وذِي وقُودُ النَّار[1]

وهكذا فقد كانت المعاني الأخلاقيَّة في شعر أسامة منهلاً عذباً، ومشعلاً مضيئاً، أبان خلالها عن تجاربة في هذه الحياة، وأرشد الآخرين إلى أن يستضيئوا بها في دروب الحياة، ويتحلَّوا بها في تعاملهم مع الآخرين، للوصول إلى الثَّواب الجزيل من الله تعالى أولاً، وكسب محبَّة النَّاس ثانياً.

❁❁❁❁

(١) المصدر السابق ص ٢٨٧.

المبحث الثالث:

الخصائص الفنِّيَّة في شعر الأخلاق عند أسامة بن منقذ

أولاً: الألفاظ والتراكيب:

قال ابن رشيق القيرواني: "اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الرُّوح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوي بقوّته، فإذا سلم المعنى واختلَّ بعض اللفظ كان نقصاً للشِّعر وهُجْنَةً[1] عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج، والشَّلل، والعور، وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الرُّوح"[2]. ولا شكّ أنّ الرُّؤية النَّقديَّة في أهمّيّة اللفظ ودقَّة اختياره، وقيمة المعاني ودلالتها على التَّجربة، الشِّعرية من الجوانب الرَّئيسة في تشكيل النَّصّ الشِّعري، وانتقاء الألفاظ واختيارها على الشَّكل الّذي يوائم التَّجربة أمر أساس لدى الشَّاعر، فليست كل كلمة يحسن استخدامها، ولكنَّ اللفظة المعبِّرة الفصيحة هي التي يحسن أن تستخدم في العمل الأدبي.

والشَّاعر وهو يخوض تجربته لابدَّ أن يفتِّش عن أدلِّ الكلمات للمعنى الّذي يعبِّر عنه، حيث إنَّ بعض الألفاظ أدلُّ على إحساس الأديب من بعض[3].

والمتأمِّل في ألفاظ شعر الأخلاق عند أسامة بن منقذ يلحظ بوضوح

(١) الهجنة: العيب والقبح في الكلام وغيره،
(٢) العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ٢٥٢/١.
(٣) انظر: أسس النَّقد الأدبي عند العرب د. أحمد بدوي ص ٤٥٢.

اختيار الشَّاعر للكلمات التي تتواءم مع أفكاره ورؤاه، وهي في ذات الوقت مألوفة قريبة من النفس، تفصح عن مدلولها بسهولة، ومن النُّصوص التي تعبِّر عن هذا الجانب قوله:

اِلْقَ الْخُطُوبَ إِذَا طَرَقْـ ـن بِقَلْبِ مُحْتَسبٍ صَبُورِ
فَسَيَنْقَضِي زَمَنُ الْهُمُو مِ، كَمَا انْقَضَى زَمَنُ السُّرورِ
فَمِنَ الْمُحالِ دَوَامُ حَا لٍ فِي مَدَى الْعُمْرِ الْقَصِيرِ(١)

حيث يدعو الشَّاعر إلى التدرُّع بالصَّبر في مواجهة الأحداث الجسام، والاحتساب في ذلك طلبا للأجر والثَّواب، مبيِّناً أنَّ الهموم والغموم لا تدوم أبدا، وإنما تنقضي كما ينقضي السُّرور بعد أن تسعد به النفس، وهكذا ديدن الحياة، فهي لا تدوم على حال.. وقد اختار الشَّاعر لهذه المعاني ألفاظاً سهلة مألوفة، لا يحتاج القارئ معها إلى التَّنقيب في معاجم اللغة، كما أنَّها تتناسب مع المعنى الذي تعبِّر عنه، وتدلّ عليه، فالكلمات (الخطوب، محتسب، صبور، سينقضي، زمن، الهموم، السُّرور، المحال، العمر، القصير) كلها ألفاظ تدلّ على لزوم الصَّبر والاحتساب، والتَّيقُّن من أنّ الحزن لا يدوم على حال، وكذلك الفرح، فدوام الحال من الحال، وقد جاءت الألفاظ ملائمة للمعنى، مفصحة عنه بوضوح.

ومن شعر الأخلاق الذي اتَّسمت ألفاظه بالألفة وقرب المأخذ ما عبَّر عنه أسامة بن منقذ في قوله:

تَوَالَى إِليَّ السَّائلونَ، وإنَّني لآنَفُ ألاَّ يُدْرِكَ السُّوْلَ سَائِلِي
ولكنَّ مَسْتُورِي كَظَاهِرِ حَالِهم فَمَا حِيلَتِي، والحظُّ حَرْبُ

(١) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٨٦.

وَلَوْ بَسَطَتْ أَيْدِي الحَوَادِثِ مِنْ تَلَقَّتْهُمُ قَبْلَ السُّؤَالِ بِنَائِلِي[1]

فالشَّاعر هنا يذكر كيف أتاه من يطلبون كرمه وعطاياه، وأنَّه ليعزُّ عليه ألاّ يدرك أولئك السَّائلون سؤلهم، فقد أنفق أمواله في مساعدة إخوانه ومن يلجاؤون إليه لطلب الإغاثة، ولو توفّر المال في يده لتلقَّى سائليه، وأعطاهم ما يأملونه من قبل أن يسألوه. وقد عبَّر عن هذا المعنى بألفاظ سهلة مألوفة تلائم المضمون الشِّعري، ومن تلك الكلمات: ((توالى، السَّائلون، السُّؤل، الحظُّ، الفضائل بسطت، أيدي، الحوادث، تلقَّتهم، السُّؤال، نائلي))، وهي ألفاظ تتلاءم مع المعنى العام، وتعبّر عنه بوضوح.

وفي شعر الأخلاق نلحظ اعتماد الشَّاعر على الألفاظ الإسلامية في بعض الأحيان كما في قوله:

يَا آلِفَ الْهَمِّ، لاَ تَقْنَطْ، فَأَيْأَسُ مَا تَكُون يأتيكَ لُطْفُ اللهِ بِالفَرَجِ

ثِقْ بِالَّذِي يَسْمَعُ النَّجْوى، ويُنْجِي مِنَ الـ ـبَلْوَى، وَيَسْتَنْقِذُ الغَرْقَى مِنَ اللُّجَجِ[2]

فقد اتَّكأ الشَّاعر في هذا النَّصّ على القاموس الإسلامي، واختار منه ما يعبِّر عن موضوعه بما يناسبه من الألفاظ والعبارات، ومنها: ((لا تقنط، لطف الله، ثق بالذي، يسمع النَّجوى، ينجي من البلوى، يستنقذ الغرقى)) فقد أسهمت هذه التَّراكيب في تشكيل الصُّورة العامَّة للموضوع، وعبَّرت عنه بما يتلاءم مع مضمونه وأهدافه.

كما اتَّسمت التَّراكيب في شعر الأخلاق بجودة الصِّياغة، فجاءت واضحة بعيدة عن التَّنافر، تتّسم بحسن التَّأليف، ومن ذلك ما يظهر في قول

(١) المصدر السَّابق ص ٢٩١.
(٢) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٩٦.

أسامة:

لاَ تَجْزَعَنَّ لِخَطْبِ فكلُّ دَهْرِكَ خَطْبُ
وحَادِثاتُ اللّيَالِي مُمِلَّةٌ ما تُغِبُّ
تَرُوحُ سَلْماً، وتَغْدُو عَلَى الْفَتَى وَهْيَ حَرْبُ
ولاَ تَضِقْ بِاصْطِبَارٍ ذَرْعاً، إذا اشْتَدَّ كَرْبُ
فَصَبْرُ يَومِك مُرٌّ وفي غَدٍ هُوَ عَذْبُ[1]

فالشَّاعر هنا يَنْهَى عن الجزع والسُّخط في مواجهة الأحداث والخطوب، مبيِّناً أنَّ أجمل ما يتحلَّى به المرء في مثل هذه الأحوال هو الصَّبر، فعاقبته حلوة عذبة.. وقد اختار الشَّاعر لهذا المعنى ألفاظاً سهلة مألوفة، وُفِّق في صوغها في عبارات قصيرة متآلفة ومتناسقة، تتَّسم بالتَّرابط، فـ((حادثات اللَّيالي، وتروح سلماً وتغدو، ولا تضق باصطبار، واشتدَّ كرب)) من التَّراكيب السَّهلة المترابطة، التي تعبِّر عن المضمون الشِّعري بوضوح.

❁❁❁❁

(١) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٨٠.

ثانيا: الصُّورة الفنِّيَّة:

تشكّل الصُّورة الفنِّيَّة جزءاً مهمّاً من الأدوات التَّعبيريَّة القادرة على إثراء المعنى، وتوسيع دلالاته، وتكثيف الصِّياغة الشِّعريَّة لما تملك من الإيجاز والقصد والإيحاء بالمعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة، بعيداً عن الأسلوب المباشر والتَّقريريَّة(١).

والصُّورة الأدبيَّة "هي الوسيلة الفنِّيَّة لنقل التَّجربة الشِّعريَّة"(٢)، وتصوير العاطفة، وهي تضفي على العمل الأدبي جمالاً وتأثيرا(٣).

وممَّا يتَّصل بالأثر التَّعبيري للصُّورة فإنه ينبغي أن تكون معبِّرة عن حقائق الوجدان وانفعالاته، بعيداً عن دائرة الأوهام والمستحيلات، الّتي تحيل العمل الأدبي إلى طلاسم وصور مبهمة، يصعب استنطاقها أو تلمُّس أبعادها(٤).

وتأتي الفنون البيانيَّة في مقدِّمة الصُّور التي وردت في شعر الأخلاق عند أسامة بن منقذ، وهي صور عمادها التَّشبيهات والاستعارات، حيث لجأ إليها الشَّاعر لما تمثِّله من قيمة عالية في الأداء الفنِّي.

ويعدُّ التَّشبيه من أكثر الفنون البيانيّة جرياناً في الشِّعر، فهو من أقدم صور البيان وأقربها إلى الفهم والأذهان، وبه يزداد المعنى وضوحاً، ويكتسب تأييداً(٥)، ومن الصُّور التَّشبيهيَّة في شعر الأخلاق ما يظهر في قول أسامة:

أُسْتُرْ بِصَبْرِكَ مَا تُخْفِيهِ مِنْ كَمَدٍ وَإنْ أَذَابَ حَشَاكَ الهمُّ وَالْحُرَقُ

(١) انظر: الصُّورة والبناء الشّعري د. محمّد حسن عبد الله ص ١٨-١٩.
(٢) النقد الأدبي الحديث د. غنيمي هلال ص ٤١٧.
(٣) انظر: الصُّورة الفنِّيَّة في النَّقد الشّعري د. عبد القادر الرباعي ص ٨٨.
(٤) انظر: في النَّقد الأدبي د. شوقي ضيف ص ٧٥.
(٥) انظر: العمدة في محاسن الشِّعر وآداب ونقده لابن رشيق ٢٨٧/١.

كالشَّمْع يُظْهِرُ أَنْوَارَ التَّجمُّل، والدُّ مُوعُ مُنْهلَّةٌ، والْجِسْمُ مُحْتَرِقُ[1]

حيث يدعو إلى الصَّبر وإظهار التَّحمُّل والجلد أمام الحوادث والخطوب، من دون اهتزاز أو ضعف، وإن بلغ الهمّ مداه، واحترق الفؤاد بالأسى والحسرة، مشبِّهاً ذلك الثَّبات والصَّبر وقوة التُّولكنَّها في حقيقتها تحترق، وتذوب جوانب منها، ومع ذلك تظلُّ ثابتة صامدة حتَّى النِّهاية.. وقد أكَّد التَّشبيه المعنى، وجسَّده، ورسَّخه في الأذهان.

ويدعو أسامة إلى اختيار الأصدقاء الفضلاء النُّبلاء، والابتعاد عن صحبة السُّفهاء والأشرار الذين يجرُّون الويلات والنَّدم لمن يقترب منهم، حيث يقول:

عِشْ واحداً، أو فالتمس لك صاحباً في مَحْتِديْ وَرَعٍ، وطِيبِ نِجَارِ

واحْذِرْ مُصَاحَبَة السَّفِيهِ، فَشَرُّ ما جَلَبَ النَّدَامَةَ صُحْبَةُ الأَشْرَارِ

والنَّاسُ كَالأَشْجَارِ: هَذَا يُجْتَنَى مِنْهَا الثِّمَار، وذِي وقُودُ النَّار[2]

حيث شبَّه الشَّاعر النَّاس بالأشجار التي يُنتفع من بعضها، بالثَّمر والغذاء، وبعضها لا تصلح إلاَّ أن تكون حطباً للنار، فهي تزيدها اشتعالا ولهيباً، وهو ما قرّب المعنى ورسَّخه في الأذهان.

ويصف أُسامة حاله وقد واتاه الكبر، وضعفت قواه، فيقول:

أَصْبَحتُ كَالنَّسْرِ خَانَتْهُ قَوَادِمُهُ لاَ تَسْتَقِلُّ[3] جَنَاحَاهُ إذا نَهَضَا

(١) ديوان أسامة بن منقذ ص ٣٠٤.
(٢) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٨٧.
(٣) استقلَّه: حمله ورفعه.

أَرُوحُ مِنْ نَائِبَاتٍ لاَ تَغِبُّ وِمنْ هُمُومِ عَيشٍ كَمَا لاَ أشْتَهِي غَرَضَا[1]

حيث يصوِّر الشَّاعر حالة الوهن والضَّعف والشَّيخوخة الْمُتْعبة التي آل إليها بعد أن امتدّ به العمر، إذ يربط بين حالته تلك التي لا تستطيع النُّهوض، وحالةً ذلك النَّسر الذي كان في يوم من الأيام يحلِّق في أعلى القمم، ولكنّه بلغ بعد ذلك حالة لم تعد فيها جناحاه قادرةً على أن تحمله وترفعه إذا أراد أن يحلِّق كعادته.

ومن الصُّور الفنِّيَّة التي اعتمد عليها أسامة ما عبَّر عنه حين فقد أحد أبنائه، فغالبته الهموم، ونازعته اللوعة، وانتابه الحزن، فذهب يخاطب نفسه، ويحاورها، ويلقي أمامه جملةً من الأسئلة، التي يطلب منها، ويلحّ عليها أن تجيبه، فيقول:

يَا نَفْسُ أيْنَ جمِيلُ صَبْـ ـرِكِ حِينَ تَطْرُقُكِ الْخُطُوبُ؟
أَيْنَ احْتِمَالُكِ مَا تَكَا دُ الرَّاسِياتُ لَهُ تَذُوبُ؟
مَاذَا دَهَاكِ؟ إِلَى مَتَى هَذَا التَّأَسُّف والنَّحِيبُ؟
كَيْفَ اسْتَزَلّكِ بَعْدَ صِدْ قِ يَقِينِكِ الأَمَلُ الْكَذُوبُ؟
أَرَجَوتِ أَنْ سَيَرُدُّ مَنْ غَالَ الرَّدَى دَمْعٌ سَكُوبُ؟
أَمْ خِلْتِ أنَّ نَوَائِبَ الدُّ نْيَا لِغَيرِكِ لاَ تَنُوبُ؟
هَيْهَاتَ، كُلُّ الخَلْقِ مِنْ نَكَبَاتِهَا لَهُمُ نَصِيبُ
مَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى عَلَى مَرِّ الزَّمانِ لَهُ حَبِيبُ؟

(١) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٨٨.

لَكِنْ يُسَلِّي النَّفْسَ أنَّ لِحَاقَنَا بِهِمُ قَرِيبُ[1]

فالشَّاعر هنا عمد إلى ((التَّشخيص))، وذلك حين شخَّص نفسه، وألقى عليها كلَّ صفات الإنسان العاطفيِّ الماثل أمامه، الّذي يتلقَّى كلَّ تلك الأسئلة العاطفيَّة المؤثِّرة، ويخوض معه بحر التساؤلات، علَّه يجد الإجابة الوافية الشَّافية، الَّتي تنقله من الحزن إلى الفرح، ومن الشَّقاء إلى السَّعادة. وهذا ((التَّشخيص)) ألقى بظلاله على المعنى، ونقل الموقف من تأثُّر وجدانيّ معنويّ إلى صورة محسوسة، وحوار شخصي مؤثّر، يحمل بكلّ تجليَّاته جماليَّة الصُّورة وأبعادها المؤثّرة.

ومن الصُّور الفنّيّة في شعر الأخلاق ما يظهر في رسم الحالة النفسيّة التي واجهها الشَّاعر وهو يعاني غربة الدِّيار، وغربة الأهل والأحباب، إذ يخاطب أسامة زوجته فيقول:

ولاَ تَسْأَلِينِي عَنْ زَمَانِي فَإنَّنِي أُنَزِّه عَنْ شَكْوَى الخُطُوبِ لِسَانِي

وَلَكِنْ سَلِي عَنِّي الزَّمانَ، فإنَّه يُحدِّثُ عَنْ صَبْرِي علَى الحَدَثَانِ

رَمَتْنِي اللّيالي بِالْخُطُوبِ جَهَالةً بِصَبْرِي عَلَى مَا نَابَنِي وَعَرَانِي

فَمَا أَوْهَنَتْ عَظْمِي الرَّزَايَا وَلاَ لَهَا بِحُسْنِ اصْطِبَارِي في الْمُلِم يَدَانِ[2]

فالشَّاعر هنا يعبِّر عن صبره وجلده وقوة تحمله أمام مالاقاه من أحداثٍ وخطوب، وغربة وعناء، وتنكُّر وعداء، وهو مع ذلك لا يشكو الزَّمان، فليس ذلك من أخلاقه ولا من سجاياه. ولا ينس الشَّاعر أن يُلقي بظلال الصُّورة الجميلة على شعره، وذلك حين عمد إلى ((التَّشخيص)) في إبراز فكرته،

(١) ديوان أسامة بن منقذ ص ٥٠٥.
(٢) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٧٨.

فشخَّص الزَّمان، وأراده أن يكون محلَّ التساؤل عن صبر أسامة وخلقه، وهو الدَّليل على تجلّده وجسارته، فهو الّذي سيتحدّث عن صبره على الفواجع والخطوب المدلهمَّة. كما أنَّ ((الليالي)) عندما رمته بالحوادث والمواقف المؤثِّرة فإنَّها كانت تجهل صبره وتجلُّده، حين وضعته في المواجهة، ولكنَّه مع ذلك بقي صلباً صبوراً. وقد ألقت الصُّورة بظلالها على المعنى، وأدَّت إلى إبرازه في ثوب قشيب من خلال جماليَّة التَّشخيص، ودوره في المحافظة على وهج الصُّورة، وإبرازها بشكل بديع.

ثالثاً: المحسِّنات البديعيَّة:

تحدَّث النُّقَّاد عن فنون البديع، وقيمتها الفنِّيّة، وما تضفيه على النَّص الأدبي شعراً كان أو نثراً من أثر جمالي تطرب له الأذن، واشترطوا أن يكون مجيؤها عفويًّا ودون تكلُّف، حتَّى لا تأتي على حساب المعنى(١). ولذا ينبغي "أن تكون كالحليّ، يروق منها القليل في الكلام إذا استدعاه المعنى"(٢).

وقد ازدهر فنُّ البديع لدى شعراء القرنين السَّادس والسَّابع الهجريَّين، الّذين استجادوا ألوانه وأعجبوا بها، وراحوا يجمِّلون بها أشعارهم، ويصبغون بها كتاباتهم، فتفاوت استخدامهم لها بين معتدل ومكثر، وكان ذلك محلَّ نظر كثير من الدَّارسين، الذين يذهبون إلى ضرورة الاعتدال في الأخذ من تلك المحسِّنات؛ ليبقى أثرها جميلا، وتبقى قريبة إلى النفوس(٣).

والمتأمّل في شعر الأخلاق عند أُسامة بن منقذ يجد أنَّه قد اعتنى بالزِّينة البديعيَّة، ومال إليها في كثير من قصائده، حيث مال إلى ثلاثة ألوان منها، أحدها من المحسِّنات اللفظيّة وهو (الجناس)، واللونان الآخران من المحسِّنات المعنويّة، وهما (الطِّباق والمقابلة).

وقد استعمل تلك الفنون البديعيَّة في بعض أشعاره، ومن ذلك قوله في تغيّر الأصحاب، وتبدُّل مودّتهم، وتحوُّلهم إلى صفوف الأعداء، وأن الصَّبر هو خير سلاح في مواجهة مثل هذه الأحوال:

أُنْظُر بِعَيْشِكَ، هَل ترى أحَداً يَدُومُ علَى الْمَوَدَّةْ

(١) راجع: سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ١٧١، الطراز للعلوي ٢١/٣، كفاية الطالب في نقد كلام الشَّاعر والكاتب لضياء الدَّين ابن الأثير ص ٤٠.
(٢) أسس النَّقد الأدبي عند العرب د. أحمد أحمد بدوي ص ٤٧٦.
(٣) انظر: الأدب في بلاد الشام عصور الزِّنكيين والأيوبيين والمماليك ص ٦٧٥.

لَتَرَى أَخِلاّءَ الرَّخا ءَ عِداً، إِذَا نَابَتْكَ شِدَّةْ
ولكُلِّ مَا تَأْبَى وتَهْوَى إنْ صَبَرْتَ، مَدَى وَمُدَّةْ[1]

فقد لجأ إلى المقابلة في البيت الثاني، حيث قابل بين ((أخلاء وعدا)) و((رخاء وشدة)).

كما طابق في البيت الثَّالث بين ((تأبى وتهوى))، وجانس في البيت الأول بين ((يدوم والمودّة)) وفي البيت الثَّالث بين ((مدىً ومدّة)).

ويستخدم أُسامة الطِّباق في بعض أبياته التي تحضّ على التَّدرُّع بالصّبر والتمسّك به، حيث يقول:

اِصْبِرْ عَلَى مَا تَخْتشي أوْ تَرْتجي تَظْفَر بِحُسْنِ سكينةٍ ونجاحِ
أَوْ مَا تَرَى السَّارين لَمّا صَابَرُوا ظُلَمَ السُّرَى أَفْضَوْا إلى الإصْبَاحِ[2]

فقد طابق في البيت الأول بين ((تختشي)) و((ترتجي))، كما طابق في البيت الثَّاني بين ((السُّرى)) و((الإصباح))، وقد أضفت الزِّينة البديعيَّة إلى المعنى حسناً وبهاءً، وعبَّرت عنه بوضوح.

وعندما يخاطب الشَّاعر الشَّامتين، ويبيّن لهم علوَّ همَّته، وترفُّعه عن أحقادهم وغلّهم فإنه يستخدم كذلك الزِّينة البديعيّة، حيث يقول:

قُلْ لِلَّذِينَ يَسُرُّهُمْ مَا سَاءَنَا: لاَ زَايَلَتْكُمْ حَسْرَةٌ وَتَلَهُّفُ
شَمْلِي، بِحَمْدِ اللهِ بَعْدَ تَشَتُّتٍ وتَفَرُّقٍ، مُتَجَمِّعٌ مُتَأَلِّفُ
والمالُ إِنْ غَالَ الزَّمَانُ تِلاَدَهُ وَسَلِمْتُ سَدَّ مَكَانَهُ الْمُسْتَطْرَفُ[3]

(١) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٨٣.
(٢) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٨٢.
(٣)المصدر السّابق ص ٢٨٩.

حيث طابق في البيت الأول بين ((يسرُّهم)) و((ساءنا))، وفي البيت الثَّالث بين ((غال)) و((سلمت)).

أمَّا البيت الثَّاني فإنّه قابل فيه بين معنيين هما ((تشتّت ومتجمِّع)) و((تفرّق ومتألِّف)).

ويميل الشَّاعر إلى الجناس في بعض أبياته التي يصف فيها جوده وكرمه، وما يبذله من عطاء عند الملمّات، حيث يقول:

مَا كَفَّ كَفِّيَ عَنْ جُودِي بِمَوْجُودِي نَوائِبٌ، وَمُلِمَّاتٍ لَحَتْ[1] عُودِي

في اليُسْرِ أَبْذلُ مَيْسُورِي، وأَبذلُ في عُسْرِي لِطَالِبِ رِفْدِي شَطْرَ مَوْجُودِي[2]

فقد جانس بين ((كفّ)) و((كفِّي)) وبين ((جودي)) و((موجودي)) وبين ((اليسر)) و((ميسوري)). وكما يظهر فقد ألحّ الشَّاعر على الجناس فأتى ببعض الألفاظ قسراً، ممَّا أفضى به إلى التكلُّف.

ويستخدم الشّاعر المقابلة في أبيات أخرى في وصف حاله، وقد واتاه الكبر، وضعفت قواه، إذ يقول:

كَفَى حَزناً أنَّ الحوادِثَ قَصَّرتْ يَدِي ولِسَانِي عَنْ نَوالٍ وعنْ أَمْرِي

فَمَا يختَشِي الأعداءُ بَأْسِي وسَطْوَتِي ولاَ يَرْتَجِي الإخْوَانُ نَفْعِي وَلاَ نَصْرِي[3]

فقد لجأ إلى المقابلة في البيت الثَّاني بين أربعة معانٍ هي: ((يختشي ويرتجي)) و((الأعداء والإخوان)) و((بأسي ونفعي)) و((سطوتي ونصري))، وقد أبانت هذه المقابلة بين المعاني الأربعة عن تمكّن الشَّاعر، ومقدرته في

(١) لَحَا العُودُ: قشره.
(٢) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٨٥.
(٣) المصدر السابق ص ٣٠٠.

الإفادة من الزَّينة البديعيَّة.

ويلجأ الشَّاعر إلى الطِّباق في بعض أبياته التي تحضّ على الصّبر، وتشير إلى تبدُّل الأحوال، فالعسر يتبعه اليسر، والحزن يتلوه السُّرور، حيث يقول:

إنْ فَاجَأَتْكَ اللَّيَالي بِمَا يَسُوءُ فَصبْرَا
فَالدّهرُ يُرْهِقُ عُسْراً وَيَتْبَعُ الْعُسْر يُسْرَا
لَو دَامَ مَا سَاءَ مِنْهُ لَدامَ مَا كَانَ سَرَّا[1]

فقد طابق في البيت الثَّاني بين ((عسرا و((يسرا))، وكما طابق في البيت الثَّالث بين ((ساء)) و((سرَّا)).

وكما أبانت هذه الدِّراسة فقد اعتمدت كثير من قصائد أُسامة بن منقذ على الفنون البديعيّة، المعنويّة منها واللفظية، حيث كانت تلك المحسّنات أحد المقاييس الفنِّيّة لأدب القرن السَّادس الهجري، فقد سار كثير من الشُّعراء في هذا الرَّكب، وتنافسوا فيه، وأعملوا فيه جهدهم، لذا لم تخل تلك الأشعار من التَّكلُّف في بعض الأحيان.

❁❁❁❁

(١) المصدر السابق ص ٣٠٦.

الخاتمة

شعر الأخلاق عند أسامة بن منقذ هو عنوان هذا البحث الذي حاولت أن أرصد فيه هذا الاتجاه عند أحد شعراء القرن السادس، حيث أبانت المقدّمة بإيجاز عن مفهوم الأخلاق في الإسلام، وأثرها في حياة الأمم والمجتمعات.

وقد تكوَّن هذا البحث من ثلاثة مباحث، عرَّفت في المبحث الأول بالشَّاعر مؤيَّد الدَّولة أُسامة بن منقذ من حيث اسمه، ونسبه، ومولده، ونشأته، واتِّصاله بالحياة السِّياسيَّة في عصره، وارتحاله عن بلده ((شيزر))، وأهمّ الآثار الأدبيّة التي تركها.

أمَّا المبحث الثَّاني فقد أبان عن موضوعات شعر الأخلاق الَّتي تناولها أسامة بن منقذ، وهو ما يدلّ على رسوخ الاتِّجاه الأخلاقي في شعره، ومن تلك الخصال الحميدة: علوُّ الهمَّة، والكرم، والصبر، والتّحلّي بالأخلاق الفاضلة، والابتعاد عن كل ما يشين تلك الأخلاق.

وقد تناول المبحث الثَّالث الخصائص الفنّيّة في شعر الأخلاق، حيث جاءت الألفاظ مألوفة، واضحة، بعيدة عن الغرابة، ولعلّ وضوح الفكرة في ذهن الشَّاعر هو الذي أدّى إلى اختيار الألفاظ المألوفة الواضحة التي تعبّر عن المراد، وتفصح عنه لأول وهلة.

كما اعتمد ذلك الشِّعر على الصّورة الفنِّيّة في إبراز بعض المعاني الأخلاقية بشكل مؤثِّر، وكان التَّشبيه والاستعارة من أهمّ الفنون البيانيّة التي ظهرت في شعر الأخلاق.

أما المحسِّنات البديعيَّة فقد لجأ الشَّاعر إليها لتزيين شعره، فقد كانت من الجوانب الفنِّيّة التي شاعت وراجت في عصره، وعُدَّت من أهمِّ المقاييس الفنِّيّة في الشِّعر آنذاك.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

❁❁❁❁

المصادر والمراجع

١- الاتجاه الأخلاقي في الإسلام د. مقداد يا لجن، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ.

٢- الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي الطوائف والمرابطين د. منجد مصطفى بهجت، مؤسسة الرسالة، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٣- الأخلاق الإسلامية وأسسها د. عبد الرحمن حبنكة الميداني،

٤- الأخلاق في الإسلام د. عبد اللطيف محمد العبد، مكتبة التراث، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ

٥- الأدب المفرد، للإمام أبي عبد الله محمد إسماعيل البخاري، المكتبة الأثرية بالهند، بدون تاريخ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٦- الأدب في بلاد الشَّام عصور الزّنكيين والأيوبيين والمماليك. د. عمر موسى باشا، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٧- الأدب في بلاد الشام من العصر الإسلامي وحتى نهاية العصر العباسي، د. عمر موسى باشا، دار طلاس للنشر، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

٨- أسامة بن منقذ –حياته وشعره- لحسن عباس، الهئية المصرية العامة للكتاب، الإسكندريّة ١٩٧٩م.

٩- أسس النَّقد الأدبي عند العرب د. أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطِّباعة والنَّشر، القاهرة ١٩٧٩م.

١٠-الاعتبار لأسامة بن منقذ، مكتبة الثقافة الدِّينية، القاهرة، بدون تاريخ، حرَّره: فيليب حتِّي.

١١-الحياة الأدبية في عصر الحروب الصّليبية بمصر والشام د. أحمد أحمد بدوي، مطبعة

نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٩م.
١٢–ديوان أسامة بن منقذ، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثَّانية ١٩٨٩م، تحقيق: د. أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد.
١٣–الروضتين في أخبار الدولتين النُّوريَّة والصَّلاحيّة لشهاب الدِّين عبد الرّحمن بن إسماعيل المقدسي، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.
١٤–سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) دار الكتب العلميّة، بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٢م.
١٥–سير أعلام النُّبلاء لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن الذّهبي (ت ٧٤٨هـ) مؤسسة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ، تحقيق: شعيب الأناؤوط وآخرون.
١٦–صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج، مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٥هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
١٧–الصُّورة الفنِّيَّة في النَّقد الشّعري –دراسة في النّظرية والتَّطبيق–: د. عبد القادر الرباعي، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
١٨–الصُّورة والبناء الشّعري: د. محمّد حسن عبد الله، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م.
١٩–الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ليحيى بن حمزة العلوي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٠م.
٢٠–العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده: لابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، تحقيق: د. محمد قرقزان.
٢١–فتح الباري بشرح البخاري، لابن حجر العسقلاني، مكتبة الرياض الحديثة، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ.
٢٢–في النَّقد الأدبي د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة ١٩٧٧م.

٢٣–كفاية الطالب في نقد كلام الشَّاعر والكاتب لضياء الدِّين ابن الأثير، مطبعة دار المتب للطباعة والنشر بجامعة الموصل ١٩٨٢م، تحقيق: د. نوري القيسي وزميله.
٢٤– لباب الآداب لأسامة بن منقذ، دار الكتب السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ. تحقيق: أحمد محمد.
٢٥– مسند للإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) دار المعارف، القاهرة، ١٣٧٤هـ، شرح: أحمد محمد شاكر.
٢٦–معجم الأدباء لياقوت الحموي، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ.
٢٧–معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت ١٣٧٤هـ.
٢٨–النقد الأدبي الحديث د. غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢م.
٢٩– الوافي بالوفيات لصلاح الدِّين خليل بن أبيك الصَّفدي، دار النشر: فرانز شتاير بفيسبان ١٩٧١م.
٣٠– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان لأبي العبَّاس شمس الدِّين أحمد بن أبي بكر بن خلِّكان (ت ٦٨١هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، تحقيق: د. إحسان عبَّاس.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٢٤١
المبحث الأول ٢٤٣
أسامة بن منقذ–حياته وآثاره–: ٢٤٣
آثاره ومؤلفاته: ٢٥١
المبحث الثاني ٢٥٣
موضوعات شعر الأخلاق عند أسامة بن منقذ ٢٥٣
أولا: علوّ
الهمّة..... ١١
ثانيا: الكرم: ٢٥٧
ثالثا: الصبر: ٢٥٩
رابعا: خصال أخرى: ٢٦٣
المبحث الثالث: ٢٦٥
الخصائص الفنِّيَّة في شعر الأخلاق عند أسامة بن منقذ ٢٦٥
أولاً: الألفاظ والتراكيب: ٢٦٥
ثانيا: الصُّورة الفنِّيَّة: ٢٦٩
ثالثاً: المحسِّنات البديعيَّة:..... ٢٧٤
الخاتمة ٢٧٨
المصادر والمراجع ٢٨٠
فهرس الموضوعات ٢٨٣